الفصل الثانى

السلطة - الهرطقة - وتطور المسيحية

كان القرن الرابع الميلادى حاسماً للمسيحية : فقد قامت خلاله الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية باعتماد المسيحية كدين لها، وبذا أضحت العقيدة خاضعة للدولة على نحو مباشر. وسنشير هنا إلى تأثير السياسة المباشر فى الثيولوجيا. فقد أصبح الدين والهرطقة أهم السبل فى الصراعات السياسية داخل الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية، فضلا عن كونهما الشعار وبؤرة التقاء شتى المدن والأقاليم والجماعات والبطاركة ذوى الطموح. كذلك، فقد أرسيت قواعد تأجيج الصراع الإقليمى فى الشرق الأوسط – حتى فى كنف المسيحية، إذ سيدخل الإقليم فى النهاية صراعا ثلاثى الأبعاد بين روما والقسطنطينية والإسلام. وسنقوم الآن بملاحظة كيف أثرت السلطة والهرطقة فى الاعتبارات الجيوبوليتيكية بالإقليم حتى قبل نشأة الإسلام، بما فيها العداء المتنامى بين الشرق والغرب، أى بين القسطنطينية وروما. وسرعان ما سيتبنى الإسلام ذلك الحذر والتشكك الجيوبوليتيكى إزاء الغرب.

ولقد نشأت قضية "الهرطقة" مباشرة بعد رفع المسيح، وذلك عندما دبت بذور الشقاق والانقسام بين أتباعه حول كيفية تفسير الأحداث المرتبطة بحياته ودعوته وانتقاله، وهو ما أدى إلى تمهيد الطريق لنشأة هرطقات لاحقة. وبمرور الوقت، أضحت الدولة والقوى السياسية المتصارعة مدفوعة بشدة لإرساء تعريف للثيولوجيا والهرطقة، وكيفية إدارتهما والتعامل بشأنهما لما لهما من تأثير مباشر فى سياسات هذه الدولة أو تلك. وكان من يقوم بالترويج لهذا المبدأ الثيولوجى أو ذاك يلقى الاهتمام ذاته الذى يلقاه المبدأ الذى يروج له.

ومنذ البداية، فقد تم الزج بالسياسة اعتبارا من قرار التخلص من المسيح. فلقد اعتبرت معظم القيادات والمرجعيات الدينية بأورشليم المسيح نبيا مزعوما ودعيا مهرطقا ونادت بقتله. وفى النهاية، رضخت الدولة -السلطات المحلية فى الإمبراطورية الرومانية- لمطالب زعماء الجماعة اليهودية الداعية إلى قتله. وبالنسبة

لروما، كان هذا قرارا سياسيا، لا قرارا ثيولوجيا. بل يمكن للمرء أن يذهب إلى أنه بالنسبة لقادة المجلس الأعلى اليهودى ذاته، فقد كان ذلك عملا سياسيا للتخلص من المسيح لما مثله من تهديد لسلطات اليهود ونفوذهم فى المجتمع.

ولقد كانت نواة نشأة الهرطقة وإرهاصاتها موجودة منذ البداية. فعلى أى نحو سيكون الرابط، إن وجد، بين اليهودية والدين الجديد؟ بطبيعة الحال، فإن جميع أتباع المسيح الأوائل، تقريبا، كانوا من اليهود الذين اعتبروا أنفسهم نصارى يهود. ولكن، إذا كانت المسيحية، حقا، فصيلا من اليهودية، أكان متوجبا على الوثنيين الراغبين فى اعتناق المسيحية قبول اليهودية قبيل الدخول فى الدين الجديد؟ يرى أغلب اللاهوتيين المسيحيين،اليوم، أن القديس بولس، وليس المسيح، هو من أسس المسيحية بحق كدين جديد مميز ومستقل بعض الشئ عن اليهودية. فبعد وفاة بولس، لم يعد لزاما على من يرغب فى اعتناق المسيحية أن يكون يهوديا. كذلك، فقد

كان بولس أول من دشن قاعدة ثيولوجية مفادها كون الدين والإيمان به المكون الأساسى للخلاص وليس التزام المرء طيلة حياته بمقتضيات الشريعة اليهودية. وقد أدى التوجه الجديد للكنيسة بقيادة بولس إلى أعظم الانشقاقات صدعا فى تاريخ اليهودية. وقد جاءت المسيحية، كدين جديد، لتزعم كونها دينا عالميا شاملا، متاحا للكافة ومشرعة أبوابه للجميع، حيث تنتفى التمايزات القائمة على الجذور الإثنية أو الدينية، فلن يكون هناك بعد اليوم "شعب مختار"، لأنه أضحى بمقدور أى من كان أن يصير "مختارا" باختيار المسيحية دينا له. وبذا، أصبح الإيمان، وليس "القانون" أو الشريعة، طريقا ومعبرا للخلاص المنشود.

لذا، فمنذ البواكير، انبثقت الكثير من الآراء المتباينة حول المسيح، إذ سعت الجماعة المسيحية الأولى لاستجلاء معالم حياته ومظاهر دعوته وتعاليمه. ولعل القضية الخلافية الأكثر إثارة للجدل ضمن القضايا الأولى هى التساؤل بشأن طبيعة وماهية المسيح عيسى بن مريم، تلك الخلافات الجدلية التى كان لها، حتما، أثر فى الإسلام.

* هل كان المسيح بشراً، أم إلهاً، أم كليهما؟

* هل حملت به العذراء ووضعته، بحق، من وجهة النظر البيولوجية، أم كان وجوده سابقا لميلاده؟ وطالما كان وجوده سرمديا، هل وجد على الدوام مواكبا لوجود "الرب"؟

* هل المسيح مساو للرب، أم هو "الرب"؟

* هل وجد "الرب" أولا، ثم قام بخلق المسيح؟ فإذا كان الأمر كذلك، ألا يجعل ذلك "المسيح" فى "مرتبة ثانية" بعد "الرب"؟

* هل الإله/"الرب" واحد، أم كيان ثنائى يضم المسيح و"الرب"؟ أم ثالوث يجمعهما والروح القدس؟

* إذا كان المسيح بشرا وإلها فى آن واحد، ما الطبيعة الأكثر أهمية: العنصر البشرى أم الكيان الإلهى؟ وهل يمكن، بحق، أن يتنزل إلى الأرض ليحيا كبشر ويموت مصلوبا؟

* ماذا حدث للمسيح بعد أن قضى وقام ثانية من بين الأموات؟ هل له وجود مستقل أم اتحد مع "الرب"؟ أم كان له على الدوام وجود مستقل؟

تلك الأسئلة وكثير أخر قد كدرت صفو الكنيسة ثم الإمبراطورية الرومانية لاحقا، وحرضت على موجات من العصيان، وأوجدت نحلاً جديدة، وأشعلت شرارة الصراع المدنى والعسكرى، وشرذمت السلطة الدنيوية. وظلت تلك الأسئلة بلا اتفاق أو إجماع بشأنها، كما أدت، وما تزال، إلى شق الصف واللحمة المسيحية.

ولم يكن للمسيحية، خلال ثلاثة القرون الأولى، أدنى وضع قانونى أو رسمى إذ كانت ما تزال "حركة" أو "تنظيماً" تم رفضه واضطهاد عناصره، على نحو متواتر، من قبل الدولة فى الإمبراطورية الرومانية. كذلك، فقد رفض المسيحيون المداهنة أو التزلف أو تقديم فروض الولاء فى حدها الأدنى للدين الرسمى (أو دين الدولة) فى روما – وهو ولاء ذو صبغة مرنة غير مقيدة تنطوى على انحناءة احترام وإجلال بسيطة للرموز القليلة النفوذ الإمبراطورى، حتى وإن شرع المرء حينها فى القيام بطقسه التعبدى. على أنه قد تم اعتبار رفض الإقرار بدين الدولة فى حدوده الدنيا مع قيام المرء بممارسة شعائر دينه – اعتراضاً ورفضاً للدولة ذاتها... ومظهرا من مظاهر الثورة والعصيان.

وفى تلك الآونة، كانت وجهات النظر المتعارضة بشأن طبيعة المسيح تحيا جنبا إلى جنب لفترات زمنية ممتدة إلى أن شرعت الكنيسة فى رفض الكثير من وجهات النظر المتعارضة فى محاولة منها لاستئصالها وخلق إجماع ما حول رؤية صائبة (أرثوذكسية) واحدة. ولقد عجل التبنى الرسمى النهائى للمسيحية من قبل القوة الإمبراطورية الرومانية فى القسطنطينية – تعضيد الإجماع حول العقيدة المسيحية،

وذلك من خلال قوى مستحدثة تم اعتمادها.

ومن وجهة نظر الدولة، فإن الثيولوجيا وما يرتبط بها تظل على قدر كبير من الأهمية من أن تترك فى أيدى علماء اللاهوت. فالقرارات ذات الطابع الثيولوجى يجب ألا يتم حصرها بأن تقتصر على نتائج الأعمال ومخرجات الأنشطة المبهمة لعلماء اللاهوت الجالسين بوقار ومهابة وإجلال فى مجامعهم، بل تمتد لتشمل كوكبة من مرجعيات متنافسة -المؤمنون، علماء اللاهوت على تباين مشاربهم، الساسة، وأخيراً، الإمبراطور- تتنافس جميعها لتحديد رسالة المسيحية الحقة بما يتماشى ومصالحها الذاتية. وتهدف تلك المرجعيات جميعها إلى تحقيق هدف واحد شديد الأهمية، ألا وهو التوكيد على هيمنة الكنيسة والدولة على الاعتبارات العقدية. إذ إن القيام بتحدى هيمنتها على تأويل تلك الاعتبارات هو تحد لقوة الكنيسة وسطوة الدولة ذاتهما. وفى غمار الحماسة المشبوبة للدين الجديد، تم تناول قضية طبيعة المسيح بالجدل والنقاش فى الأوساط العامة بين الجماعات اليهودية وغير اليهودية على امتداد العالم القديم - تحديداً فى الأناضول بتركيا، واليونان، ومصر. وقد تدوولت بعض الروايات عن الجدالات والنقاشات الشعبية التى جرت أحداثها داخل حوانيت الحلاقة والحانات فى القسطنطينية بشأن طبيعة المسيح وماهيته. ولقد كان اليهود الهيلينيستيون، والممثلون لقسم كبير من الجماعة اليهودية، فى بؤرة تلك الجدالات... بيد أن القضايا المرتبطة بطبيعة المسيح لن تذوى أو تختفى، بل ستطفو إلى السطح مرارا وتكرارا فى هرطقات لاحقة، حتى فى ظل نشأة الإسلام ذاته.

وبتبنى الإمبراطورية الرومانية البيزنطية رسميا للمسيحية، شرعت الدولة فى إحكام قبضتها على جميع الاتجاهات التأويلية والمدارس الفكرية الموجودة بالإمبراطورية بغية إرساء قدر من الأرثوذكسية وتحديد "الآراء والعقائد الصائبة". كذلك، فقد تم التوفيق فيما بين المتحزبين ذوى الآراء المتباينة ووجهات النظر المختلفة، وإلا فقد تم مصادرة آرائهم أو قمع أفكارهم. لذلك، ليس مستغربا أن أثرت قوة بعض الرسميين ونفوذهم ذوى الآراء المخالفة، على نحو بالغ، فى

حسابات الدولة حين اتخاذها القرار. كذلك، فكيف للدولة القيام بتحديد سيل الأفكار والآراء الدينية العارم فى المحيط الشعبى منذ عهد المسيح، وكيف لها أن تنظمها وتصنفها وتوفق فيما بينها؟ كانت الخطوة الأولى على هذا الدرب السيل العارم للأفكار والآراء الدينية فى الدعوة إلى عقد عدة مجامع مسكونية لتحديد الصيغة الرسمية للعقيدة الدينية وإرسائها. فعندما دعا الإمبراطور الرومانى قسطنطين الأول (الكبير) إلى عقد مجمع نيقية فى عام ٣٢٥ لتشكيل التعاليم الأساسية للمسيحية وصياغتها فى قانون الإيمان المسيحى، ظن المجمع أنه أرسى الكلمة الفصل فيما يتعلق بقضية "الإيمان المسيحى" على مر العصور.

ولكن لم تكن تلك هى الحقيقة، فقد استوجب الأمر عقد مجامع أخرى، كما استلزم إحداث المزيد من التغييرات. وكان من أوائل مهام الكنيسة الرسمية تقرير النصوص التى يمكن اعتبارها، بحق، "كتابا مقدسا". فمن بين العديد من الكتابات عن المسيح وحوارييه والحركة المسيحية الأولى، أى منها سيتم تكريسه واعتباره مقدسا كجوهر العقيدة المسيحية ولبها؟ وأية نسخ من أية كتب سيتم اعتمادها، حيث ينتشر منها العديد؟ وقد كان لاعتماد كتاب ورفض آخر مستتبعات مباشرة تمخض عنها رابحون وخاسرون، فقد اعترف ببعض الكتب واعتبرت أصيلة، فيما رفض البعض الآخر باعتباره دخيلا. ولقد تباينت معايير الاعتراف بأصالة الكتب تباينا كبيرا، فبعض الكتب اعتبرت مدونة فى وقت لاحق للمسيح بمدى كبير بما يجعلها تفتقر إلى المرجعية والمصداقية لتناول حياته. كذلك، حظيت بعض الكتب بقبول واسع بين جماعات بذاتها، على حين انتفى ذلك عن البعض الآخر. وكانت بعض الروايات قد اعتبرت غير موثوق بصحتها إذ لا يستقيم الركون إلى مرجعيتها، فيما عُدّت أخرى بمنأى عن التعاليم القياسية للكنيسة إلى الحد الذى اعتبرت معه تجديفا وهرطقة صريحين. كذلك، فقد اعتبرت بعض الكتب مشتملة على قيمة تاريخية فيما يخص توثيق الحركة المسيحية الأولى، على أنه لم يعتد بها "ككتاب مقدس".

فما الكتاب المقدس، إذا؟ إنه الكتاب الحاوى لنصوص تم تبنيها من قبل مرجعيات معتمدة وموثوقة والاعتراف بكونها "أصيلة"، ومن ثم اعتمادها، واعتبارها "مقدسة" لاحقا. وتتحدد أصالة "المقدس" من خلال تحكيم تقوم به أطراف معنية. ونتيجة لذلك، رفضت الكثير من النصوص المسيحية الهامة من قبل المرجعيات المعنية وفقا لمعايير التحكيم. بيد أن تلك النصوص الأصيلة، ولو أنه قد رفض اعتمادها، إلا أنها تحوى وثائق ونصوصاً على درجة عالية من الأهمية لفهم المسيحية وإدراكها ... أعمال عظيمة كأنجيل متى، و"مخطوطات البحر الميت" و"ملفق أعمال الرسل" وأعمال أُخَرْ.

ولم تكن النصوص وحدها الطرف الخاسر، بل وجدت أيضا أبنية من الأفكار والمعتقدات منيت بالخسارة، حيث تم استبعاد جماعات بأسرها كانت تؤمن بهذه الأفكار والمعتقدات، وفقا لما حكمت به سلطات الكنيسة ومرجعياتها بموجب مرسوم الدولة فى هذا الشأن، فالأفكار القديمة والمتبناه لا تقاوم بعناد لا يلين. ويبقى السؤال : فيما يخص المجامع المسكونية التى تم عقدها، من ذا الذى ستتم توجيه الدعوة إليه؟ ومن ذا الذى سيتم الاستماع إليه؟ وكيف ستجرى عملية اتخاذ القرار؟ لقد كان زعماء الكنيسة والجماعات المختلفة الذين لم يتم اعتبار آرائهم مطالبين بالتبرؤ من وجهات نظرهم، وإلا عدوا هراطقة مجدفين.

لقد أضحت قوة الدولة وسطوتها تطرد فيما يخص مسيرة تأصيل الدين ونشره وتطبيقه. ورغما عن اتسام التحول إلى اعتناق المسيحية عن طريق التبشير باليسر والسلاسة، إلا أنه غالبا ما كان يتم دعمها عن طريق سيطرة الدولة على المعابد والمؤسسات ودور العبادة الوثنية القديمة فى حقبة ما قبل المسيحية، وحظر الممارسات والطقوس التى كانت تقام بها. وفي السنوات اللاحقة، لم تكن مسيرة التحول فى بعض الحالات سلسة على الإطلاق. فإذا أخذنا مثالا يوضح ذلك كغزو "الساكسون" وتحويلهم إلى اعتناق المسيحية على يد "شارلمان" خلال حرب الثلاثين عاما التى اشتعلت بدءا من عام ٧٣٢، والمتسمة بأقصى درجات الوحشية والعنف،

لوجدنا أن التحول إلى اعتناق المسيحية كان، بالأساس، تسويغا أيديولوجيا لتمديد رقعة إمبراطوريته الفرنجية الكارولنجية. وقد حكم على أولئك "الساكسون" الذين استمروا فى ممارسة طقوسهم التعبدية لآلهتهم التقليدية بعقوبة الإعدام. ولقد كانت تلك الحملات العسكرية من العنف بما جعل الأساقفة الفرنجة يخافون من العواقب طويلة الأجل لذلك التحول الدموى عن الملة بحد السيف.

لقد أدى دعم الدولة وتأييدها، بشقية القسرى والطوعى (الإقناعى) إلى تيسير النهج التبشيرى، فاستحسان الظهور بمظهر الولاء للعقيدة الرسمية للدولة جعل التحول إلى النصرانية أمرا حصيفا وسهلا. ولقد التجأت الدولة لاستخدام طرائق شتى للحط من قدر الوثنية واستئصال شأفتها. إذ عمدت، فى كثير من الأحيان، إلى جعل آلهة الوثنيين كما لو كانت شياطين يعبدها المرء وإن أدت إلى إلحاق الضرر به. وفى أحيان أخرى، ذهبت الكنيسة إلى صيغة توافقية مع الممارسات الوثنية بقبولها لبعض من آلهة الوثنيين واعتبارهم "قديسين" من فورهم، بما يضمن أن يكون وجودهم فى البيئة المسيحية الجديدة مستساغا، وإن تكن قد خبت أهميتها. كذلك، كان غالباً ما يتم إعادة تنظيم دور العبادة المقدسة للوثنيين وتحويلها إلى دور للقديسين الذين سلفت الإشارة إليهم. وكانت هذه الممارسات عادة ما تتم فى نطاق القبائل الهمجية فى أوروبا، وفى الآونة الحديثة فى قيام الكنيسة الرومانية بالتبشير حيث تحول بعض السكان المحليين فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى اعتناق المسيحية. ولقد صادف الإسلام المشكلة ذاتها تقريبا أثناء انتشاره فى أربعة أركان المعمورة، فى مواجهته للعقائد والملل السابقة و"القديسين"، والتى تم الحفاظ عليها، كحد أدنى، فى مظهر إسلامى، بواسطة المتحولين الجدد إلى اعتناق الإسلام.

ولقد مثل الافتتان بمريم العذراء توسعا آخر لنطاق "المقدس" والذى امتد ليشمل رموزا متزايدة فى "الهيكل الكنسى". ولقد بدأ الافتتان الرسمى بمريم العذراء بعد نحو أربعة قرون من رفع المسيح، رغما عن المعارضة الشديدة

لتجسيدها. ولم يبدأ تبجيل العذراء وتوقيرها كرمز فى الكنيسة الشرقية إلا بحلول القرن السادس الميلادى، وبعد ذلك بزمن فى الكنيسة الغربية. (وقد ذهبت كارين آرمسترونج إلى أن تبنى تجسيد مريم العذراء فى "الهيكل الكنسى" كان استعاضة -ولدت فى اللاوعى- عن تحريم تجسيد الإلهات فى كثير من الديانات الشرقية الأولى، وكذا بموجب المظهر التوحيدى الأبوى بالغ الصرامة والمميز لليهودية، وفى ظل المسيحية البروتستانتية لاحقا). أما كتاب ميرلين ستوون When God Was a Woman، فيشير إلى تحول المجتمعات التى اعتمدت النظام الأمومى، فى الغالب، والتى عبدت الإلهات، إلى النظام الأبوى الذى عمد إلى اعتبار المرأة مصدرا للإغواء والرذيلة، ذلك المنحى الذى تبنته الملل الإبراهيمية الثلاث.

وقد كانت القسطنطينية، وليس روما، المسئولة عن غالبية تلك القرارات الثيولوجية والعقدية. ورغما عن كونها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه فى الوقت الذى أقرت فيه شرعية المسيحية، كانت روما تعانى أوقاتا عصيبة، بوصفها موضعا ملتهبا يضطرب تحت وطأة الغزوات الهمجية وتواترها واستيطانها لها. وتزامنا مع ذلك، فقد تم اختيار القسطنطينية، كمدينة استحدثت، عاصمة بديلة للإمبراطورية الرومانية لما لها من هيمنة وسطوة ... تلك العاصمة التى أضحت مقرا دائما لكرسى الإمبراطور الرومانى. وقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بيزنطة، هى التى اتخذت قرار تبنى المسيحية كدين رسمى لها. كذلك، فقد اضطلعت هذه الإمبراطورية مترامية الأطراف بجميع مقتضيات الدولة كإمبراطورية لألف عام أخرى، فى ظل تضاؤل الأهمية الجيوبوليتيكية لروما كقوة إمبراطورية. ولقد كانت القسطنطينية هى من اضطلع بمعظم المهام الأولى لتحديد الأرثوذكسية، وتعيين مجمل الكتب المعترف بها، والبت فى تلك التى تعد تجديفا وهرطقة. كما كانت بيزنطة هى من نشر المسيحية على امتداد معظم بلدان الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط شمالا حتى دول البلقان، وفى معظم الأراضى السلافية.

وخلال سنى أوجها، غزت الإمبراطورية الأراضى المكونة لمعظم شمال إفريقيا، ومصر، وسوريا، ومعظم أراضى ما يعرف الآن بالعراق وآسيا الصغرى (الأناضول). وكانت الزرادشتية، فى أرض فارس، هى المنافس الأوحد للمسيحية فى ذلك الإقليم، وذلك حتى نشأة الإسلام فيما بعد.

فسيفساءات هرطقية

انبثقت كوكبة مدهشة من الأفكار المسيحية تباعا فى شرقى المتوسط، والتى نعت معظمها، لاحقا، بكونه هرطقات تجديفية. وتكمن أهمية تلك الهرطقات فى إخبارها لنا إخبارا مستفيضا عن الديناميات المؤثرة فى سياسات القوى داخل الإمبراطورية البيزنطية. كذلك، فهى تفصح بقوة عن العقلية الدينية وثقافتها آنذاك – إلى حد تمهيدها الطريق لكثير من الآراء العقدية فى الإسلام. ويرشدنا إدراك ديناميات الهرطقة، مرة تلو الأخرى، كيف أن الدين كان يمثل قاطرة، وليس سببا، للخلافات والانقسامات والمواجهات البينية على اهتمامات ومنافسات تنزع إلى أن تكون دنيوية الطابع، لا أن تكون دينية النزعة. أفليست الطريقة المثلى، إذا، لاستنهاض طموح المرء ودفعه للأمام أن يُخلَع عليه إهاب دينى ومسحة إلهية؟!

لقد كانت إحدى أكثر الهرطقات تبكيرا فى النشأة وأطولها امتدادا عبر الزمن – المرقيونية. فوفقا لجورج روبرت ميد، الباحث فى الشئون المسيحية، كان مرقيون (١١٠–١٦٠) أحد مالكى السفن الموسرين فى سنوب، على ساحل البحر الأسود – ضمن الأراضى التركية الآن. وقد اقتفى مرقيون خطى أبيه فى أن يصبح أسقفا لسنوب. كذلك، فقد كان يخصص، على الدوام، جانبا كبيرا من أمواله الخاصة للكنيسة، وقام بزيارة روما كشخصية شهيرة للترويج لرؤيته، وذلك حوالى عام ١٤٠ – قبل أن تخلع الإمبراطورية الشرعية على الكنيسة بما يقارب ١٦٠ عاما. وحتى فى تلك الآونة، كانت الكنيسة تتخذ موقفا عدائيا من رسالة مرقيون، وقامت بتشليحه وحرمانه من شركة الكنيسة فى عام ١٤٤، كما عمدت إلى رد جميع

الأموال التى سبق له وأن تبرع لها بها.

وكان خطأ مرقيون من وجهة نظر الكنيسة أنه أضحى أكثر "بولسية" من القديس بولس ذاته. فقد ذهب بولس، بالطبع، إلى أن المسيح قد بشر برؤية دينية جديدة تماما ومختلفة عن اليهودية ... بينما أعلن مرقيون، بصفته أسقفا مكرسا بالكنيسة فى القرن الثانى الميلادى، وكزعيم شهير فى أسيا الصغرى، أن العهد القديم برمته يتعارض مع العقيدة المسيحية. كذلك، فقد قام بعرض بيانات محكمة ودقيقة عن خصائص "إله" اليهود وسماته كما وردت فى العهد القديم وموازاتها بخصائص "الرب" وسماته الذى بشر به المسيح. وقد خلص مرقيون إلى أن سمات "إله" اليهود من حسد وغضب وعنف وانتقام تتعارض تماما مع "إله" الحب والمغفرة والتسامح الذى بشر به المسيح، وبذا، فإن "إله" اليهود ليس هو الإله "الحق" ... ليس هو الرب وفقا للمسيحية، ولكن "معبود" أقل شأنا من "الرب" الذى بشر به المسيح ... ذلك الرب الذى فاقت قدرته، وعظمته قدرة "إله" اليهود ومعبودهم. بل بلغ الأمر بمرقيون أن أنكر معظم الحواريين كونهم، من وجهة نظره، شهوداً لا يعتد بهم ولا يركن إليهم، مشيرا إلى أن القديس بولس هو الوحيد الذى فهم رسالة المسيح وأدرك كنهها. وخلص مرقيون إلى أنه من غير المجدى ولا الضرورى محاولة التوفيق ما بين اليهودية والمسيحية.

ورغما عن اعتبار مرقيون مهرطقا، إلا أن جماعته كانت على قدر من القوة. وقد قام مرقيون بتأسيس العديد من الكنائس التى نافست روما لقرون، وذلك فى إيطاليا، ومصر، وفلسطين، وجزيرة العرب، وسوريا، وآسيا الصغرى، وبلاد فارس. كذلك، فقد عُدّت الكنيسة المرقيونية الثانية من حيث النفوذ والسلطان والأهمية ضمن الجماعات المسيحية الأولى، فلم تسبقها سوى الكنيسة الرسمية ذاتها.

وقد ظلت عناصر رسالة مرقيون ودعوته باقية إلى الآن، فى هيئة جماعات ومنظمات تقوم على نشر أفكاره ورؤاه والترويج لها. ويكمن العمر الممتد كسمة

أساسية ومميزة للفكر المرقيونى فى المأزق الثيولوجى الهام الذى طرحه : كيف يمكن التوفيق بين العصبية القبلية اليهودية ضيقة الأفق، وكذا العنف الذى يصبغ العهد القديم، فضلا عن "الرب" ذى السمات الغاضبة والاستبدادية والمتقلبة – وبين "الرب" فى العهد الجديد، فضلا عن رسالة المسيح وتعاليمه المنطوية على الحب والتسامح؟

لذا، يبقى السؤال : هل ثمة استمرارية وتواصل فيما بين اليهودية والمسيحية، أم أن الأمر ينطوى على انقسام عميق بعيد الشقة بينهما؟ فإذا كانت الاستمرارية والتواصل، فالمسيحية، إذا، هى هرطقة جلية من وجهة النظر اليهودية، أما إذا كانت الهوة عميقة بينهما، فلا يمكن، إذا، النظر إلى المسيحية على أنها "هرطقة يهودية"، وإنما على أنها كيان مستقل للإيمان حيث تكون الصلة بين العهد القديم وبين تعاليم المسيح موضعا للسؤال. ولا تنى تلك الأسئلة تكرر نفسها. كذلك، فهى تمثل نسخة مبكرة من جدال ما زال قائما إلى الآن يذهب إلى رفض وإنكار مفهوم وجود "إله واحد" للملل الإبراهيمية الثلاث، مشيرا إلى تباين الآلهة. بيد أن المرقيونية، وعلى أية حال، قد برزت كتحد سافر وكبير بوجه سلطة الدولة المسيحية ونفوذها فى بيزنطة.

بعد أن خلعت الإمبراطورية صفة الشرعية على المسيحية فى عام ٣١٣، كانت الهرطقة الكبرى والممتدة أثرا، والتى تلت المرقيونية فى الظهور ... هى الآريوسية، التى تأتى طبيعة المسيح وماهيته فى القلب منها. ولقد كان "آريوس" (٢٥٠–٣٣٦) لاهوتيا مرموقا ولد فى ليبيا ونال تعليمه فى أنطاكية (تركيا اليوم) حيث تشبع بالكثير من الأفكار التى ستلازمه لاحقا، ثم انتقل للعيش والتدريس فى الإسكندرية بمصر ... وهى أحد أهم وأكبر المراكز والبطريركيات المنافسة فى العهود المسيحية الأولى. وقد بشر آريوس بأن المسيح قد تم خلقه من قبل "الرب"، كما حدث بالنسبة للروح القدس، وأنهما معا خاضعان للرب، الذى هو "الرب الحق"، والخالق الأوحد. وبذا، فإن للمسيح نشأة وبداية، بينما لا ينطبق ذلك على "الرب"، فالرب ذاتى

الوجود، فيما لا يكون "الابن" كذلك، والذى لا يمكن أن يكون ربا بذاته. لذا، يصبح المسيح كيانا أقل درجة.

وقد أضعف هذا الإيمان والمعتقد بشدة من الموقف الأرثوذكسى والذاهب إلى أن مفهوم الأب والابن والروح القدس، ثلاثتهم كأرباب، كان موجودا على الدوام، وسيظل كذلك بوصفهم أكفاء وأندادا. على أن المعتقد الآريوسى قد تم شجبه باعتباره هرطقة وفقا للإيمان المسيحى الذى خلص إليه مجمع "نيقية" فى عام ٣٢٥ . بيد أن الحركة الآريوسية كان لها نفوذ وقوة حتى أنها نالت تعاطف خليفة الإمبراطور قسطنطين الكبير. كذلك، فقد أضحت الآريوسية متجذرة بين القبائل الجرمانية فى أوروبا، وكذا فى الشرق الأوسط، وبخاصة الإسكندرية، حيث كانت الفرصة مهيأة لقبول مثل هذا التفكير بشأن المسيح ككيان يأتى لاحقا للرب، وليس كفؤا له. وقد أضحت العقيدة الآريوسية محركا دفع بالإسكندرية للتطلع إلى اكتساب القوة وامتلاك النفوذ. وتكشف استمرارية الرؤية الآريوسية عن عدم الارتياح إلى مفهوم "الثالوث" المركب واعتبار المسيح على قدم المساواة مع الرب. وبعبارة موجزة، كان هناك تعاطف دائم مع عناصر التوحيد الخالص التى لا ترضى بديلا عن "الإله الواحد"، وهو جوهر العقيدة اليهودية، وكذا جوهر الإسلام الآتى لاحقا، كذلك فهذا ما تؤمن به "الكنيسة التوحيدية" فى عصرنا الحالى.

ورغماً عن الإعلان رسميا بأنها هرطقات ملعونة، إلا أن بعضا من تلك الهرطقات قد نجح بالفعل فى التحرر وإرساء دعائم ثابتة لكياناتها. وفى حقيقة الأمر، فإن الجدل الدائر حول ماهية المسيح وطبيعته الحق ظل جدلا دائرا لم يحظ، ولن يحظى بأى إجماع مسيحى بشأنه.

وفيما أنكرت "الآريوسية" أن يكون المسيح على قدم المساواة مع "الرب" ككفؤ له، فإن عقيدة "الطبيعة الواحدة" قد ذهبت إلى الاتجاه المقابل مؤمنة بامتلاك المسيح لبعض السمات البشرية على أن ماهيته وطبيعته هى "قدسية ربانية" بالأساس، وهو

ما يخالف تعاليم الكنيسة بأن المسيح ذو طبيعتين كاملتين، إحداهما بشرية والأخرى ربانية. وقد أعلن مجمع "خلقيدونية" الرابع فى عام ٤٥١ أن تعاليم عقيدة "الطبيعة الواحدة" تعد هرطقة وتجديفا، وهو حدث ذو شأن ونقطة فارقة أدت إلى أول تمزق جدى ودائم فى نسيج الكنيسة – وكذا الاستقلال والانفصال النهائى لما يطلق عليها اليوم الكنائس الأرثوذكسية الشرقية أو كنائس "الطبيعة الواحدة"، وقد تم احتضان وجهات نظر أصحاب "الطبيعة الواحدة" بقوة فى سوريا، والمشرق، ومصر ... وهى المراكز التى قاومت سطوة القسطنطينية ونفوذها، كذلك فقد تم احتضان وجهات النظر تلك فى كل من أرمينيا والحبشة.

وقد أدت التنويعات بشأن طبيعة المسيح وماهيته إلى خلق هرطقات أخرى كالإيبيونية، تلك الطائفة اليهودية/المسيحية، والتى انبثقت فى القرن الأول الميلادى، وأبرزت الانتشار واسع المدى لليهودية. وتذهب الإيبيونية إلى اعتبار المسيح نبيا لا إلها بالتعارض مع رؤية القديس بولس (وبالتوازى التام مع رؤية الإسلام للمسيح).

أما الأوطاخية، فقد ذهبت إلى أنه فيما امتلك المسيح بعض العناصر ذات الطبيعة البشرية، إلا أن السيادة كانت للعناصر الربانية. ولذا، فإن معظم الخلافات والجدل الدائر بشأن ذلك الأمر يرتبط بالعذراء مريم : هل كانت مريم أم المسيح كرب؟ أم أنها كانت أما له فى هيئته البشرية فحسب؟

وقد أدت الارتباطات والمصالح الجيوبوليتيكية إلى إذكاء النار فى الخلافات الثيولوجية بشأن طبيعة المسيح وماهيته. وقد ارتبطت الأوطاخية بشدة بسعى الإسكندرية فى عام ٤٣٣ للتوكيد على مركزها كثانى أكثر المدن المسيحية أهمية بعد القسطنطينية، وهو مركز سعت إليه بشدة غريمتها أنطاكية، والتى روجت لرؤية أكثر أرثوذكسية بشأن طبيعة المسيح.

أما الدوسطية، فقد ذهبت إلى القول بأن جسد المسيح ما هو إلا وهم من المنظور المادى، وأنه بدا ولو أنه قد مات، بيد أنه كان، فى الحقيقة، روحا محض لا

يصيبها البلى ولا يدركها الموت. ويرتبط هذا الاعتقاد بالمفهوم القائل بأن كل ما هو "مادى" فى هذا الكون يعد شرا، لذا فالرب وولده لا يمكن أن تكون لهما "طبيعة مادية". أما الإسلام، والمؤمن بكون المسيح ذا طبيعة بشرية مادية لا ربانية - فيشترك مع هذا التوجه بأن المسيح لم يمت على الصليب، وإنما شبه للناس ذلك، وأنه قد رفع إلى السماء بإرادة الله.

أما "البيلاجيوسية"، فقد جاء بها "بيلاجيوس"، وهو راهب مغمور من الجزر البريطانية. وقد أنكر "بيلاجيوس" تعاليم الكنيسة بشأن "الخطيئة الأولى" - وهو اعتقاد بأن البشرية متلبسة بالخطيئة نتيجة "للخطيئة الأولى" التى اقترفها كل من آدم وحواء. ولعل إشكالية إنكار مفهوم "الخطيئة الأولى" تكمن فى نفى الحاجة إلى الخلاص المدرك فقط بواسطة الإيمان كما تذهب إليه الكنيسة. وفى عام ٤١٦، أعلن أن "البيلاجيوسية" هى هرطقة صريحة. وفى هذا السياق، فإن الإسلام، أيضا، ينكر مشروعية مفهوم "الخطيئة الأولى"، ويرفض مقولة "الطبيعة البشرية المتلبسة بالخطأ".

أما مذهب "وحدة المشيئة الإلهية"، فقد تم الالتجاء إليه، وإن لم يحالفه التوفيق، لإرساء صيغة توفيقية بين الكنائس المتنافسة فى كل من الإسكندرية والقسطنطينية حول ما إذا كانت أفعال المسيح تمثل روحا ربانية واحدة، أم جماعا لكل من الإرادتين البشرية والربانية. ورغما عن كونها قد بدت غامضة ومبهمة، إلا أن تلك العقيدة كان لها أساس سياسى محض فى محاولتها لرأب الصدع بالكنيسة الشرقية، والذى أحدثته هرطقة أصحاب "الطبيعة الواحدة". وفى النهاية، تم رفض هذه الصيغة التوفيقية، بما يعنى أن السياسة قد بزت الثيولوجيا وكان لها الغلبة.

إن التفاصيل المرتبطة بتلك الهرطقات تبدو مذهلة لما تكشف عنه من نطاق واسع المدى من التأويلات المعقدة والمفصلة لطبيعة المسيح وماهيته. ولقد انبثقت تلك الهرطقات جميعها قبل نشأة الإسلام، والذى يتعين، بدوره، أن ينظر إليه كجزء من

سياق الجدل بشأن التحليل اللاهوتى لطبيعة المسيح وماهيته.

كذلك، فلا يعد أى نقاش أو تناول لتلك الهرطقات مكتملا دون إيراد بعض الإلماحات والإشارات الحديثة إلى تلك الأمور الخلافية. فقد يكون للقوة والنفوذ امتياز وحق تعيين ما يعد "هرطقة" وما لا يعد كذلك، بيد أن الهرطقة لا تعنى، بالضرورة وعلى الدوام، أمرا مستجدا على مسرح الأحداث. إن الجهد الرائع الذى اضطلع به اللاهوتى الألمانى، فالتر باور، فى نهايات القرن التاسع عشر لتحليل تطور العقيدة المسيحية فى بداياتها، ليصل إلى استنتاج مفاده أن ما نذهب إلى اعتباره "هرطقة" فى وقتنا الحاضر لا يعدو، فى حقيقة الأمر إلا أن يكون الإدراك المسيحى المبكر لطبيعة المسيح وماهيته. وقد جادل باور بأن الكنيسة ذاتها هى التى قدمت تأويلات جديدة للاهوت فى القرون الأخيرة، وأسست "أرثوذكسيات مستحدثة"، وقامت فى بعض الأحيان بتغييرات فى المعتقد المسيحى الأصيل، بل وحتى فى النصوص المقدسة ذاتها. وكانت تلك التأويلات قد نشأت استجابة للمقتضيات المؤسساتية والسياسية المستجدة للكنيسة للإفصاح عن كون التفهم المبكر ضربا من التجديف والهرطقة. وقد طرحت هذه الأفكار ووجهات النظر، فى الفترة الأخيرة، عن طريق الباحث الفذ بارت أرمان، رئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة "نورث كارولاينا" فى تشابل هيل، وذلك فى كتابه "مسيحيات مفقودة".

وبحق، فما زلنا نجد مرونة كبيرة فى التأويلات الثيولوجية لبعض الأفرع الصغيرة من الملل الإبراهيمية. فعلى سبيل المثال، فإن عقيدة "الوحى المستمر" لكلمة الله هى ما يميز منحى كل من "الكويكرز"، وكنيسة "يسوع المسيح لقديسى الأيام الأخيرة" (المارمون)، و"الخمسينية" و"المسيحية الكاريزمية"، بالإضافة إلى البهائية. فوفقا لهذه العقائد، فإن الوحى المرسل من لدن الله لم ينقطع أبدا، بل هو متاح للأجيال المتعاقبة لتلقى كلمة الله على المستوى الفردى أو الجماعى. وتحظى تلك الأفكار برواج وقبول على مر الأيام، فالبهائية، ضمن عقائد أخرى، تعتنق مبدأ "الوحى المتواتر"، بما فيه من تعاقب الأنبياء المرسلين من لدن الله على مر الزمن

لنشر كلمته. ويكون هذا "الوحى المتواتر" بحيث يتناسب مع البشرية فى تطورها واتساع فهمها للرب بالعمق والنضج المتواصلين. لذا، تستلزم الأزمنة التاريخية المختلفة وحيا متمايزا عما سبقه فى مسيرة الإنسانية وسعيها الحثيث نحو مزيد من الانضباط فى إدراكها للمقدس.

ويندرج الإسلام ضمن الكثير من تلك الأنماط والاقترابات. فانهيار الدولة الأموية - أول إمبراطوريات الخلافة - عام ٧٥٠ كان منشؤه ومرده إلى عاملين أساسيين، ضمن عوامل أخرى : فقد كان مركز نفوذ تلك الدولة وقاعدته فى "دمشق"، وقد ووجهت الدولة بالمعارضة من قبل "العباسيين"، الذين مثلوا مصالح بغداد والحضارة العراقية/الفارسية. كذلك، فقد مثل العباسيون مطالب فئات جديدة من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام وكانوا مستبعدين من التمتع بحقوق متساوية وبقوى متعادلة فى ظل الدولة الأموية. لذا، فإن هذه الخلافات ترتكن فى صعودها وانهيارها إلى اعتبارات سياسية وإقليمية، لا على اعتبارات دينية أو عقدية.

وإلى يومنا هذا، نشهد على الدوام استمرارا للدور الذى تمارسه السياسة وارتباطه بالدين. ففى معرض تعليقه على الانتخابات الإيرانية ومدى نزاهتها من عدمه، ذهب سيد على أمين، مفتى الشيعة فى "صور" بجنوب لبنان فى حزيران/يونيو من عام ٢٠٠٩، فى خلافه مع زعيم جماعة "حزب الله" - إلى القول بأن تلك الحركة الشيعية اللبنانية تحاول أن تنهى المناقشات الدائرة حول "ولاية الفقيه" المعمول بها فى إيران، لأن القيام بمعارضة تلك الأيديولوجيا أو تحديها سيضعف من شوكة "حزب الله" ونفوذه فى لبنان. وأردف قائلا : "هذا هو الدليل الدامغ والبرهان الساطع على أن مفهوم "ولاية الفقيه" ليس جزءا من المعتقد الدينى، وإنما أيديولوجيا سياسية فى لعبة صراعات القوى".

إن الجدل المحتدم والخلاف المستعر حول القضايا ذات الطابع الدينى هو بالأساس جدل حول المصالح السياسية لهذه الدولة أو تلك. فحين نشأ الإسلام، لم

يكن البعد الدينى أو الثيولوجى هو ما يهم فى إقليم النشأة، وإنما كان انتقال مقاليد النفوذ والسيطرة الإقليمية إلى غريم جديد من مؤسسات الدولة. إذا ، فهى السياسة فى الشرق الأوسط. فالصراعات بين الدول ومراكز النفوذ والخلافات الأيديولوجية والهرطقات المتباينة، يمكن أن تستمر فى التفاعل والحراك لقرون عديدة قادمة.

بيد أن بيت القصيد فى طرحنا الحالى هو التوتر المحتدم والمتسارع بين الإمبراطورية البيزنطية المسيحية من جهة، وبين الكنيسة الغربية من جهة أخرى. فكما سنرى فى الفصل التالى ... فإن الإسلام، كقوة جيوبوليتيكية جديدة، لم يرث فقط كثيرا من مشاعر العداء ومناهضة الغرب داخل أراضى الإمبراطورية الشرقية فى ثوراتها ضد القسطنطينية، بل بعضا من الآراء المناهضة لروما التى نمت بمرور الزمن داخل الإمبراطورية البيزنطية ذاتها. وفيما تستقى بيزنطة هويتها وكينونتها من الاعتقاد بتخليدها للتراث والتقاليد الأصيلة للإمبراطورية الرومانية، إلا أنها قد نظرت، وعلى نحو متزايد، إلى الكنيسة الغربية باعتبارها غريماً وخصماً جيوبوليتيكياً ذا نفوذ يتهدد النفوذ والهوية البيزنطية كما يتهددها الإسلام ذاته. لذا ، ففى "عالم بلا إسلام" كان يمكن للشرق الأوسط بيسر وسهولة تصعيد وتأثر العداء فى صراعه مع الغرب.